

دراسة ملامح الواقعية في رواية "الكافرة" للكاتب العراقي "علي بدر"

زينب جعفر نژاد

طالبة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها جامعة حكيم سبزواري، سبزوار

jafarnejadzeinab@gmail.com

حسن مجيدي (الكاتب المسؤول)

أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها، جامعة حكيم سبزواري، سبزوار

H.majedi@hsu.ac.ir

مصطفى مهدوي آرا

أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها، جامعة حكيم سبزواري، سبزوار

M.mahdavi@hsu.ac.ir

Studying the features of realism in the novel "infidel" by the Iraqi writer "Ali Badr"

Zeinab Jafar Nejad

PhD student of Arabic Language and Literature , Hakim Sabzevari University
, Sabzevar

Hasan Majidi (Corresponding Author)

Associate Professor of Arabic Language and Literature , Hakim Sabzevari
University , Sabzevar

Mostafa Mahdavi Ara

Assistant Professor of Arabic Language and Literature , Hakim Sabzevari
University , Sabzevar

Abstract:

Undoubtedly, the novel fan has a prominent position in contemporary Arabic literature, and the beginning of the novel was focused on the image and reality response. In the contemporary period, realistic themes were addressed; in the center of it, it was a real image of life that we saw in Ali Badr's novel. This study is based on a descriptive and analytical approach to the study of Ali Al-Badr's novel, and examines the real developments in it

and in his famous novel Al-kafera, we find some features close to real literature. The novel is written in a period in which the world has seen dozens of films depicting how ISIS is confronted with women; the novel is the story of an Iraqi woman who suffers from violence and through which, Illustrated all the human realities in Iraqi society, the appearance, oppression, poverty and deprivation. If we look right at the novel, we will find many of the distinguishing features of the realist school, including: Social injustice, sadness and pain, poor family relationships in Iraqi society, moral defects, poverty and deprivation, alienation, violence against women. This has prompted researchers to write this article with the aim of literary realism in Ali Badr's novel, and proves it through the features of this literary-technical school

Keywords : Arabic Literature , Realism, Ali Bader , Novel , Al - kaferah

الملخص:

لاشك أن فن الرواية قد احتل موقعا متميزا في الأدب العربي المعاصر؛ اهتمت بدايات الرواية الجديدة بالالتفات إلى الواقع من حيث تصويره ومساءلته وإنها في عصرنا الحاضر تناولت الموضوعات الواقعية، وصارت مركزيتها تصويراً من الحياة، كما نلاحظ هذا الأمر في رواية «الكافرة» لـعلي البدر العراقي.

بعض السمات الخاصة القريبة من الأدب الواقعي. كتبت هذه الرواية في الفترة التي تلقى فيها العالم عشرات الفيديوها التي صورت كيف تعامل الدواعش مع النساء؛ هذه الرواية، تحكي قصة امرأة عراقية عانت من العنف ومن خلالها، قد صور البدر الواقع الإنساني في المجتمع العراقي؛ إن نبحت الرواية نصل إلى الكثير من الخصائص والسمات المتميزة والبارزة من المذهب الواقعي؛ منها: الظلم المسيطر علي المجتمع، الحزن والألم، الروابط العائلية الهشة في المجتمع العراقي، المعاييب الخلقية، الفقر والحرمان، اغتراب الذات، العنف ضد المرأة. وهذا ما بحث الباحثين علي كتابة هذه المقالة التي تستهدف أن تظهر الواقعية الأدبية في رواية علي البدر وتثبتها مستخدمة سمات هذا المكتب الأدبي الفنية.

الكلمات المفتاحية : الأدب العربي -

المذهب الواقعي - علي البدر - الرواية - الكافرة .

١- المقدمة

قد ظهر المذهب الواقعي في النصف الأول من القرن التاسع عشر وما بعده؛ وتَمَيَّز عن الكلاسيكية والرومانسية، أن أدباءه قد اتجهوا إلى تصوير حياة الطبقة الدنيا من المجتمع و لفت الأنظار إليها ومناقشة متاعبها ومشكلاتها. في الواقع، المذهب الواقعي كتيار أدبي تناول تصوير مشكلات الحياة كما هي عليه في الواقع بصدق ودقة.

أما الرواية، فإن نشأة الرواية في الأدب العربي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في العالم العربي؛ تعددت أنواع الرواية من حيث أجناسها، وما يحيط بها من خصائص فنية ورؤي مختلفة في فن كتابتها؛ فلذا اختلفت الآراء حول وضع مفهوم يجمع خصائصها الفنية. ولكن، يمكن القول: إن الرواية قصة طويلة أو هي «تجربة أدبية تصوّر بالثر حياة مجموعة من الشخصيات، تتفاعل مجتمعة لتؤلف إطار عالم متخيل، غير أن هذا العالم المتخيل الذي شكله الكاتب ينبغي أن يكون قريباً مما يحدث في الواقع الذي يعيش فيه؛ أي أن حياة الشخصيات في الرواية يجب أن تكون ممكنة الحدوث في واقع الكاتب» (وادي، ١٩٩٢: ١٧).

ولاشك أن الإحتلال الأميركي للعراق وظلم الداعش وما تبعهما من تداعيات كثيرة أوجدا فيضا من الإستفهامات أمام محنة الثقافة العربية في كيفية دحر الإحتلال الأجنبي عبر المقاومة المتحضرة التي تستبعد العنف وتلجأ إلى وسيلة فنية معبرة، من شأنها أن ترتقي بهذا البعد الحضاري وهو يستلهم من مقاومة الشعب بشتي صنوفها معانيه الفنية والإبداعية. في هذه الموضوعات المعقدة نسبياً، يمكن إحصاء عدد كبير من الروايات التي تناولت ثيمة الاحتلال الأميركي وتداعياته المختلفة علي الواقع. وتمركزت موضوعاتها حول قضايا اللحظة الاجتماعية والسياسية والعسكرية عبر أكثر من مستوي فني، عالجت فيه مشكلة الاحتلال وتداعياته الجوهرية التي عصفت في بنية المجتمع بمساحاته العامة. منها، رواية الكافرة للكاتب الروائي علي البدر.

في هذه الرواية، قد استمد الكاتب عن الإتجاه الواقعي في الأدب الروائي، فيسعي إلي أن يتضح ما يجري في المجتمع العراقي الذي يعاني من ويلات الحرب والصراعات الطائفية. تروي الكافرة قصة فاطمة التي تعيش في مدينة نائية سيطر عليها المتشددون الإسلاميون وأجبروها وعائلتها علي خدمتهم.

حاولت هذه الدراسة أن تسلط الأضواء علي ملامح الواقعية في رواية الكافرة مستمدة من المنهج التحليلي - الوصفي؛ فأورد الباحثون نماذجاً من نصوص الرواية فيها تتجلى مظاهر اتجاهاته الواقعية الاشتراكية البارزة.

أسئلة البحث:

- هذا البحث يتمحور حول عدة أسئلة رئيسية ومن أهمها:
- ما هو الباعث الرئيسي الذي دفع البدر إلي كتابة هذه الرواية؟
- ما هي ملامح الواقعية في رواية الكافرة للكاتب العراقي علي البدر؟
- كم نجح البدر في توظيف الاتجاه الواقعي في الرواية والصدق الفني بأنباضه الدقيقة؟

فرضية البحث:

لقد تميزت تجربة علي البدر الروائية بالاعتماد علي الاتجاه الواقعي لترسيم مجتمعه العربي الذي يعاني من المتشددون الإسلاميون المسيطرون علي مواطنيه العراقيين.

خلفية البحث:

ومن الأسباب التي دفعت الباحثين إلي هذه الدراسة، أنه لم يقفوا علي دراسة أو رسالة تناولت موضوع ملامح الواقعية في رواية الكافرة للكاتب الروائي علي البدر، جدير بالذكر أن الرواية موجود في شكل مسرحية، مما يجعلها مهمة جداً ولكن الذي صادفه الباحثون قبل الدراسة وفي أثنائها، هو وجود بعض دراسات منها: رسالة "الوثيقة والتخيل التاريخي في روايات علي بدر" لرنا فرمان محمد الربيعي " و مع إشراف "أ.م.د ناهضة ستار" وفي سنة ٢٠١٤.

ختاماً، نأمل أن يكون هذا البحث مقدمة لمزيد من الأبحاث حول هذا المؤلف الكبير.

ويتضح أن معظم الدراسات قد ركزت علي وقفات جزئية عند هذه الرواية. فلم تتقدم صورة شاملة ومتكاملة لنواحي الاتجاه الواقعي لرواية الكافرة كالمناهج المستخدم في هذا المقال.

منهج الدراسة ودائرتها

نهج الباحثون المنهج الوصفي التحليلي في دراسة الاتجاه الواقعي عند البدر؛ يسعون إلي دراسة ملامح الواقعية في رواية الكافرة محاولين كشف بعض جوانب حياة المجتمع

العراقي وخصائصه المتميزة؛ فتدرو هذه الدراسة حول المحاور التالية: الظلم المسيطر علي المجتمع، الحزن والألم، الروابط العائلية في المجتمع العراقي، المعاييب الخلقية، الفقر والحرمان، اغتراب الذات، العنف ضد المرأة.

الواقعية وخلفيتها في الأدب العربي

حتي نتمكن من التوسع في البحث، لا بدّ من عرض مفهوم الواقعية اللغوي والإصطلاحي والإشارة إلي مظاهرها:

لغة: يلاحظ أن كلمة الواقع في اللغة مشتقة من وقع، وقع علي الشيء ومنه يقع وقعا ووقوعاً، والواقع هو الحاصل، يُقال أمر واقع (ابن منظور، مادة وقع).

اصطلاحاً: أما عن اصطلاح الواقعية، فجاء في الفلسفة أنه مذهب يقدم الأعيان الخارجية علي المدركات الذهنية، ويراد به في نظرية المعرفة بوجه خاص أن للمعاني والكليات وجوداً مستقلاً عن الذهن. بالعبارة الأخرى، «بدأت نظرية الواقعية أساساً في الفلسفة قبل دخولها مجال الأدب، فقد كان المقصود منها دراسة أي موضوع كشيء قائم بذاته بصرف النظر عن مظهره الخارجي أو علاقته بالتجربة الإنسانية» (راغب، ٢٠٠٣:

(٧٠٤)

ظهرت الواقعية الغربية علي شكل اتجاه أدبي في القرن التاسع عشر والعشرين تحت تأثير مزدوج لنهوض العلم وردة فعل علي الإفراطات العاطفية المتصلة بالحركة الرومانسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر (نشاوي، ١٩٨٠: ٣٢٣) أما الرومانسية وهي المذهب الذي ساد قبل الواقعية، وهي تحمل في ثناياها الكآبة واليأس والهروب من المجتمع وحب الطبيعة والتغني بالعزلة وما تثير من الإنفعالات الذاتية والمشاعر الفردية مما يجعل ثورة المرء مكبوتة في حنايا قلبه تمزقه وتدفعه لليأس والتهرب واتخاذ المواقف السلبية (نشاوي، ١٩٨٠: ٣٢٣) وأما لقد اعتاد النقاد أن يربطوا ظهور المذهب الواقعي في الشعر العربي الحديث بتأثيرات المدرسة الواقعية الروسية والغربية ولكننا نضيف إلي هذه التأثيرات جملة العوامل المادية والمعنوية التي أحاطت بالإنسان العربي المعاصر ودفعته إلي مقاومة واقعه الأليم (المصدر نفسه، ٣٢١) وعلي هذا ظهر الاتجاه الواقعي في الشعر العربي في حدود منتصف القرن العشرين، ومن سمات هذا الأدب، أنه يصف ما هو كائن ويدعو إلي ما يجب أن يكون فهو وسيلة من وسائل بناء

الحياة الإنسانية وتحسينها ولذلك، فإن عليه أن يواجه الواقع بدل أن يهرب منه (المصدر نفسه، ٣٣١).

وأعطت الحرب العالمية الثانية للشعوب المغلوبة علي أمرها أملاً جديداً في الاستقلال، ولذا كثرت الإنتفاضات الثورية وحدثت تحولات وبوقوع مأساة الفلسطينيين بدأت ثمرات الفكر الاشتراكي تدخل بعض المجتمعات العربية، وكان طبيعياً أن ينفر الجيل الجديد من الشعراء من الانكباب علي القضايا الذاتية (هدارة، ١٩٩٤: ٣٧) وحاول الواقعيون نقل جوانب الحياة المختلفة في أدبهم من دون أن يكون عملهم استنساخاً أو تقليداً، وصبوا اهتمامهم علي الطبقات الشعبية العادية التي لاتنغم برفاه العيش، فوجدوا أنها تغرق في البؤس، فدعوا الناس إلي وعي الظلم الاجتماعي اللاحق بإخوانهم وطلبوا بالمساعدة في إيجاد العلاج، من هنا كانت النظرة التشاؤمية إلي الخلل الاجتماعي وربما شاء الواقعيون من تصويرهم للواقع البائس أن ينبهوا إلي الخطر من عدم إصلاحه (فضل، ٢٠٠٤: ٣٣).

لمحة عن حياة علي البدر

علي بدر كاتب وروائي عراقي، ولد في بغداد في منطقة (الكرادة الشرقية) سنة (١٩٦٤)، حصل على بكالوريوس في الأدب الفرنسي عام (١٩٨٥)، حصل على شهرة واسعة النطاق بسبب رواياته وأعماله الأدبية. ولد في بغداد، وعاش فيها حتى انتقله إلى أوروبا في بلجيكا، بعد ترجمة أعماله إلى لغات عديدة (فرمان محمد، رنا: ٥)، دشن تيار ما بعد الحداثة في الرواية العربية، وأعماله وثيقة الصلة بحياته من جهة، ومن جهة أخرى هي مرآة عاكسة للحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في العراق. تدور جميع رواياته في بغداد وتتخذ من الطبقة الوسطى موضوعاً لها، فقد حاولت رواياته رسم صور مهمة عن التاريخ الثقافي والاجتماعي والسياسي للعراق عن طريق الرواية (حسون عليعل، ١٤: ٢١٠٦).

في عام ٢٠٠١ ترك العراق وعمل في مؤسسة الام أي سي تي الألمانية متنقلاً بين بيروت وعمان وبرلين. وفي عام ٢٠٠٢ صدرت روايته الثانية شتاء العائلة، حازت على جائزة أدبية في الإمارات العربية، ثم توالى رواياته بعد ذلك، في عام ٢٠٠٣ صدرت صخب ونساء وكاتب مغمور، في عام ٢٠٠٤ الطريق إلى تل مطران، ٢٠٠٥ الوليمة

العارية، ٢٠٠٦ لا تركضي وراء الذئاب يا عزيزتي، ٢٠٠٧ مصاييح أورشليم رواية عن إدوارد سعيد، ٢٠٠٨ حارس التبغ، ٢٠٠٩ ملوك الرمال، ٢٠١٠ الجريمة، الفن، وقاموس بغداد، ٢٠١١ أساتذة الوهم، ٢٠١٥ الكافرة، ٢٠١٦ عازف الغيوم، ٢٠١٧ الكذابون يحصلون على كل شيء، ٢٠١٨، صدرت مجموعته القصصية حفلة القتل، وروايته الزعيم، وهي عن حياة الزعيم عبد الكريم قاسم -لم تصدر بعد-. ومن رواياته الشهيرة أيضاً رواية حارس التبغ التي صدرت في العام ٢٠٠٨، وقد ترشحت ترجمتها الفرنسية الصادرة عن دار لوسوي إلى جائزة الكتاب الأجنبي في باريس.

تحوّلت رواية الكافرة إلى مسرحية بالفرنسية وإلى فيلم بالألمانية وترجمت هذا العام إلى الإيطالية. أما روايته عازف الغيوم فقد صدرت في العام ٢٠١٦ وقد ترجمت إلى سبع لغات في عام واحد، منها الانكليزية، والهولندية، والإيطالية، والفرنسية. من دراساته "ماسنيون في بغداد ٢٠٠٥" التي حصلت على أعلى شهادة تقديرية من جامعة نونتر في باريس، و"خرائط منتصف الليل" الذي حصل على جائزة ابن بطوطة في الامارات العربية المتحدة وترجم الى سبع لغات اجنبية منها الكورية والصينية.

كتب علي بدر ثلاث مسرحيات بالفرنسية، منها مسرحية "فاطمة التي إسمها صوفي" التي حصلت على أربع جوائز في الموسم المسرحي القومي في بروكسل. مسرحية منزل العازبات مثلت على مسارح بروكسل، ولييج، وباري في إيطاليا. ومسرحية بار المهاجرين مثلت على المسرح القومي في بلجيكا، ومسرح باري في إيطاليا، ومسرح ديات في جزر الانتيل حصل علي بدر على العديد من المنح الأدبية، منها منحة بانيال في بريطانيا، ومنحة الأدب العالمي في شنغهاي، ومنحة جامعة نونتر في باريس (حسون عليل، ٢٠١٦: ٨٤).

التقديم لرواية "الكافرة"

كتبت هذه الرواية في الفترة التي تلقى فيها العالم عشرات الفيديوهات التي صورت كيف تعامل الدواعش مع النساء بصفتهن أغراضاً مملوكة، وكيف كان انتهاك أرواحهن وأجسادهن من مفردات «الجهاد»، عند هذه الكائنات العابرة للإنسانية؛ وفي الوقت الذي كان فيه العالم مكثفياً بالمشاهدة والاستنكار، كان علي بدر يكتب قصة الجسد والنار.

الكافرة يبلغ عدد صفحاتها ٢٢٩ في ثمانية فصول. تبدأ باستعادة الذكريات و العودة إلى الماضي (الغلاش بك). و لما تصف فاطمة، بطل الرواية، تراجيديا حياتها في العراق حين طفولتها و عنفوان شبابها، فإن العراق؛ بلد التوتر، والحروب المتتالية، و الأرض الملعونة التي تتبعها الخسونة و القتل و المعاناة، إنما هي رمز عن موجوديتها الحقيقية، و الدواesh و الإرهابيون إستولوا عليها فخلقوا نوعا جديدا من العبودية. هذه إستعادة لأقوال صوفيا (فاطمة) و آدریان في بروكسل، عندما تجد صوفيا العشق في وجود آدریان المسيحي، و هي وحيدة لا ملجأ لها.

و بادئ ذي بدء تطرح مسألة الهوية اللغوية، وهي تنبعث حيث تقول صوفيا: أنا لا أقدر أن أصفلك الكلمات الّا بلغتي الأم، فتظهر قضية الاغتراب من اللغة. هذه الرحلة هي رحلة نفسية مكبوتة في تحسين الأوضاع، فلما يئس من حل كثير من المشاكل يدرك بخيبة أمله. و قبل الخوض في صلب الموضوع، تجدر الإشارة إلى أن حوادث هذه الرواية جرت في العراق؛ ما بين القتل، الانفجارت، و الإحتلال. بطل القصة بتأسمها فاطمة (صوفيا)، التي تعيش، مغتربة، مع أناس أشبه بأشباح و لا عاطفة لهم.

قد ولدت صوفيا (فاطمة)، الشخصية الاصلية للرواية، في قرية و مدينة متروكة، متأخية مع بيداء زمامها بيد المكافحين الإسلاميين. تسكن فاطمة مع أمها فيها على أساس قانونها المدني. لكن أمها و بقية النساء في القرى الأخرى مجبرات على تقديم الخدمات لأولئك العسكريين. تتزوج فاطمة من شاب عاطل عن العمل، و يتوصل هذا الشاب أخيرا إلى هذه الفكرة أنه لا يقدر أن يدرك قيمة رمزية إلا عن عملية انتحارية. فيقوم بعملية انتحارية و يتحول من خاسر إلى بطل. فعزم الفريق المسلح على الإفراج عنها، فتفر بواسطة من تجاوزها في الطريق و تلوذ إلى بروكسل، فتغير، هويتها، هناك، من فاطمة إلى صوفيا. فتبدأ حياتها ثنائية الشخصية؛ الأولى (فاطمة) تعمل من الصباح إلى المساء منظفة في شركة ما. و الثانية (صوفيا) فتاة أروبية، تروح كل يوم الى البار لزيارة لشباب أروبي جميل – والذي تريد الزواج معه- وقت لقاء. الحقيقة هي أن صوفيا تريد بهذه الأعمال أن تنتقم من زوجها السابق، و الذي أقر أن سبب عمليته الانتحارية هو الحصول على سبعين حورية من الجنة. لكنها حاليا تحب آدریان و هو شاب مشتبّه، مهندس الطائرة في بروكسل، و كل يوم تحصل على سر من أسرار حياته.

الجدير بالذكر أنه يخفي شخصيته الحقيقية في القصة، ونلاحظ أخيراً من خلال القصة، أنه لبناني - مسيحي حيث قتلت أسرته في الحرب، فيقتل أبوه فريقاً فلسطينياً في معسكر، سوى فتاة تنجو هاربة إلى نرويج، فتتزوج ثم تتولد أدريان. بعدئذ تنتقل إلى سويدا للحياة. غير أن روح تلك الفتاة تؤذيها وتنتحر من تبكيت الضمير. فتكون هذه القصة ثقيلة على ذهنية أدريان، خصوصاً إذا تجد أباه في وثائقي، مخرجه ألماني، وهو يعترف بهذا الأمر، ويتخذ أدريان تلك الفتاة زوجة لنفسه دون أن يعرف بأن أباه هو قاتل أسرته، فيرزق منها بنت. هناك علاقة معقدة بين أدريان وصوفيا في بلجيكا، فتسافر معه، لكنها لما أدركت زواجه الأول فخرجت من البيت غاضبة، فلما يريد أدريان منعها من الخروج تصطدم وتُنقل إلى المارستان. وهي تقص على أدريان قصة حياتها، بالعودة إلى الماضي، وبعد ذلك، تتعترف صوفيا بحياة أدريان السابقة تاركة إياه لتعود إلى زوجها الأول، وتواصل حياتها مع الأعيان هائمة على وجهها.

وفي هذه الرواية تصبح صوفيا الضحية لظروف خاصة، فتتحول من امرأة بسيطة إلى من ليس لها مستقبل، امرأة قد واجهت، طيلة حياته، أزمة الهوية. هي مغتربة عن ذاتها، في الوطن كانت أو في الغربة. فهي، بتعاملها مع هذه الظروف، تجد نفسها عديمة المعنى و عبثاً، معتقداً بأن ماضيها قد أنهار و صار المستقبل بابه لديها مقفولاً، فلا تقدر على إجابة هذا السؤال: من أنا؟ فتتعرض لأزمة الهوية ثم يستولي على وجودها اليأس والكآبة، إلى أن تخضع للركود والوهن. هي تغادر وطنها فتعرض على أثرها لمشاكل اجتماعية جديدة، وهواجس فكرية أخرى، حينما تصل إلى أوروبا تكون عندها عملية انتحارية غير ناجحة، وتكون علاقة حب بينها ورجل مسيحي اسمه أدريان. إلا أن هذا الحب في تضاد أو تناقض مع العرف العربي. كما أنه لا تنتهي هذه العلاقة إلى الزواج أيضاً (بدر، الكافرة، ٢٠١٥).

وتروي الرواية قصة فاطمة التي تعيش في مدينة نائية سيطر عليها المتشددون الإسلاميون وأجبروها وعائلتها على خدمتهم، فقتل والدها في عملية انتحارية، بعدها تزوجت من شاب عاطل عن العمل يبحث عن مجده الضائع في عملية انتحارية لينعم بوعد الحوريات، ويلبس ثوب البطل بعدما كان الفشل حليفه في الحياة؛ وبعد موته قرر الإسلاميون تزويجها إلى عنصر من جماعتهم المسلحة، لكن هذه المرة لم تمثل لأوامرهم

وقرّرت اللجوء إلى أوروبا، فاتفقت مع أحد المهربين الذين ساعدها في الوصول إلى بروكسل لكنه اغتصبها في طريقهما إلى هناك، وفور وصولها تنزع فاطمة النقاب، وتحوّل من فاطمة إلى صوفي لتتقمص شخصيتين، فاطمة التي تعمل صباحاً مع شركة تنظيف، وصوفي الفتاة الأوربية التي تذهب إلى البار لتعود كل ليلة مع شاب وسيم، لتتقم من زوجها الذي أخبرها أن سبب قيامه بعملية انتحارية هو حصوله على سبعين حورية في الجنة، فتقرّر مضاجعة سبعين شاباً في أوروبا إلى أن تقع في قصة حب معقدة، تزيد الرواية حبكة وثراء (بدر، ٢٠١٥).

في البدايات، ظهرت فاطمة فتاة عادية، مثل مدينتها النائية، تخدم الإرهابيين وتخضع لأوامرهم. ثم بدأت ملاحظها، بصفاتها أسطورة تتشكل بمرور الصفحات. فقدت أباها في عملية انتحارية ثم زوجها، ليصبح الجرح جرحين، جرح الفقد وجرح كونه، فجرّ نفسه ليحظي بسبعين حورية في الجنة، ما يعني أنها لم تكن في حياته إلا سريراً مؤقتاً في العراق. هذا الجرح المضاعف، أسس لطريق مخوف بالرغبة في الانتقام.

من قواعد الغاب لدي «الجماعة»، أن تنتقل ملكية الأرملة إلى غير زوجها «الشهيد»، لكن القواعد التي باتت تحكم فاطمة جعلتها تتمرد علي هذا الواقع، وتخوض مغامرة الهروب إلى بروكسل، هنا علينا ألا نهمل رمزية كونها عاصمة الإتحاد الأوروبي الذي «زود» الجماعة بمئات المقاتلين و«المجاهدات الناكحات»، غير أن طريق الهروب من «الغابة» لم يختلف عن الغابة، إذ اغتصبها المهرب قبل أن تصل إلى «مأمنها».

كان علي فاطمة أن تتطهر من ماضيها، بالانتقام منه علي أكثر من صعيد، فعمدت إلى خلع نقابها، تحرير الجسد، وتغيير اسمها إلى «صوفي»، تحرير الهوية، والمزاوجة بينوظيفتين: تعمل منظفة في النهار، بصفتها فاطمة اللاجئة الشرقية، وتقصد الحانة ليلاً، بصفتها صوفي الفتاة الغربية، لتخرج منها في كل مرة مصطحبة وسيماً، إلى أن بلغت سبعين، لقد انتقمت في الدنيا من زوجها الانتحاري الذي ذهب ليفتش عن سبعين حورية في الآخرة.

دراسة وتحليل أهم ملامح الواقعية في الكافرة

هنا نريد أن نتناول أهم ملامح الواقعية في الرواية وهي:

١-الظلم المسيطر علي المجتمع:

كُتبت هذه الرواية في الفترة التي تلقى فيها العالم عشرات الفيديوهات التي صورت كيف تعامل الدواعش مع النساء؛ في هذه الرواية، قد صورَ البدر الواقع الإنساني في المجتمع العراقي وما يحدث للإنسان من الظلم والقهر والفقر والحرمان. في الحقيقة، إن رواية علي البدر أصدق صوت يعبر عن حالات الإنسان في المجتمع وأجمل صورة تعبر عن معاناته وأوجاعه، إنه كاتب يحسّ بالآلام الإنسان ويشعر بما حوله من ظلم وجور. إن الأعداء المفسدين يسعون إلي تحقيق أهدافهم، وللوصول إلي أهدافهم هم أشدّ استبداداً وأكثر ظلماً. إن الكاتب يعاني مما يعاني منه أبناء وطنه من مآسي اجتماعية ومن مشاكل معيشية لأنه شهد بعض هذه المعاناة في مجتمعه خاصة الظلم علي النساء؛ في الرواية، تقول فاطمة:

هَلْ يُمْكِنُنَا يَا أُمِّي - أَنْ نَجِدَ لِنَفْسِنَا مَكَاناً مُسْتَوِياً مُرِيحاً هَادِئاً، فِي الْأَرْضِ كَثِيرِ الْعَثَرَاتِ (البدر، ٢٠١٥: ٨٥)

نري بأنها تعبر عن أملها الممزوج باليأس من خلال أسلوب الاستفهام والتعجب. في النص، تشير فاطمة إلي اتخاذ القرارات الخاطئة التي تنتهي إلي الصراعات التي نشبت في أنحاء العالم.

٢-الحزن والألم:

تجرب الحروب عادة الدمار للإنسان من عدة نواحي اقتصادية واجتماعية ونفسية ويتأثر الإنسان بها كثيراً فقد شعره بالعجز وعدم القدرة على العمل وتجعله ذاتي التفكير مستسلماً لوساوس قهرية لديه تتعلق بمستقبله وحياته وحوله فيكون عاجزاً عن المساهمة في بناء مجتمعه متأثراً بالعديد من الإحاطات التي تورثها كوارث الحروب. وتسبب الحروب العديد من الاضطرابات والأمراض النفسية على الأفراد.

هذا وعلي البدر من الكتاب الذين تفاعلوا مع آمال الشعب العراقي، وعني عناية خاصة بقضاياهم الاجتماعية والسياسية، ولاسيما الحرب والفقر والحرمان، لأنه منذ أن فتح عينيه رأي نفسه ومجتمعه في الفقر والحرمان يتألم تألماً شديداً منهما.

إن البدر يرمي إلي تصوير واقع الشعب العراقي في مختلف ميادين ومجالات الحياة ولاسيما في كوارث الحرب؛ في الواقع، إن الكاتب يشعر بهموم الناس وآلامهم ويحسّ

بنبضات قلوبهم وما يدور من أفكار في عقولهم؛ فحينما نقرأ نثر الرواية، نبصر الحزن والألم عبر الكلمات، في اللوحة التالية، يصوّر لنا الكاتب حزن الأم العراقية الدائم:

« أُمِّي لَا تُحِبُّ الْمَزَاحَ أَبَدًا إِنَّهَا تَكْرَهُهُ، أُمِّي لَا تُحِبُّ الضَّحْكَ لَمْ أَرَهَا يَوْمًا ضَاحِكَةً كَانَتْ تُسَمِّي الْمَزَاحَ وَالضَّحْكَ سَفَاهَةً كَانَتْ تَنْهَرُنِي لَمْ تَكُنْ تَقْبَلُ أَنْ أَفْعَلَ هَذَا أَبَدًا أُمِّي حَزِينَةٌ دَائِمًا الْبَاكِئَةُ أَبَدًا شَاكِئَةٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » (البدر، ٢٠١٥: ١٨)

في ضوء ما تقدم يمكن القول أن للحرب آثار نفسية مدمرة علي الأم العراقية إلي حد لن تستطيع أن تضحك أو تضاحك! كما أن الكثير من آثارها تكون بعيدة المدى فتمتد طيلة عمر الإنسان وتؤثر على مجرى حياته كاملاً.

٣- ضعف الروابط العائلية في المجتمع العراقي:

إن الحرب بكل صفحاتها المفجعة قد تركت آثارها السلبية علي المجتمع العراقي وعلي الشرائح الإجتماعية التي يتكوّن فيها المجتمع ولاسيما شريحة الأطفال التي تأثرت أكثر من غيرها من بقية الشرائح بآثار وأحوال الحرب التدميرية؛ قد تجلّي هذا التأثير في ضعف الروابط الأسرية وضمور صلة الرحم التي كانت سائدة في المجتمع العراقي. في الواقع، نتيجة لهذه الحروب والنزاعات، تفككت بنية الأسرة، وتضرر كل فرد بشكل متفاوت، معتبرة أن الوزر الأكبر للضرر يتحمله الأطفال الذين فقد كثير منهم الأمان العاطفي. في اللوحة التالية، لانشتم رائحة الأمن ولانحس بوجود الأمن النفسي في العائلة العراقية:

« لَمْ أُحِبْ مَنْزِلَنَا وَهَذَا مَا جَعَلَنِي أَتَعَلَّقُ كَثِيرًا بِأُمِّي فَكُنْتُ أَهْرَبُ مِنْهُ إِلَيْهَا غَيْرَ أَنْ أُمِّي لَمْ تَكُنْ تَعْتَنُ بِي أَبَدًا. فِي اللَّيْلِ، حِينَ أَلْتَصِقُ بِهَا تَبْعِدُنِي يَدِهَا عَنْهَا كَمَا لَوْ أَنَّهَا تَدْفَعُ حَائِطًا سَيَسْقُطُ عَلَيْهَا » (البدر، ٢٠١٥: ٧٥)

في الواقع، نستطيع بالقول إن تعرض المجتمع العراقي إلي أزمات عديدة نتيجة الحصار الاقتصادي وما لحق ذلك من ممارسات العنف الطائفي والقومي بعد عمليات الاحتلال الأمريكي وماتبع ذلك من العمليات الاجرامية للمليشيات المسلحة ومايسمي بتنظيم داعش، جعل العراق في حالة من عدم الاستقرار والتوازن وفقدان الأمن. لهذه الأجواء السيئة المتوترة آثار مدمرة علي الأطفال الذين يتعرّضون للقتل أو التشويه أو

يسجنون أو يجندون في صفوف القوّات أو الجماعات المسلّحة أو يقعون ضحية الاعتداء جنسي أو الاستغلال. وكذلك نقرأ في الرواية:

«لَقَدْ مَلَلْتُ رُويَةَ الرُّعْبِ فِي عَيُونِ الْآخِرِينَ تَعَبْتُ مِنْ دُخُولِ الْمَزْبَلَةِ الْبَشَرِيَّةِ تَحْتَ أَقْوَاسِ النَّصْرِ وَالرَّايَاتِ لَقَدْ سَمِمْتُ مِنْ رُويَةِ الرُّجَالِ يَهْرَبُونَ وَالنِّسَاءِ الْحَوَامِلِ يَجْهَضْنَ وَالصِّغَارُ يَبْكُونَ □ (المصدر نفسه، ١٢٧)

في هذه اللوحة، إن الكاتب يصوّر لنا مجتمعاً لا تعتمد فيه نارالحروب أبداً، بل تشتعل الحروب الداخلية بجسد المجتمع العراقي وروحه؛ فيعمّ الرعب والاضطراب والنزاع كلّ هيكله المجتمع، وعي إثره، تضعف العلاقات العاطفية.

والأسرة مهما كانت منسجمة فإن لها قدرة في تخلص أعضائها من الأزمات والأمراض النفسية، ويقلّ مستوي الانتحار بالنسبة لها. وتصف أسرة فاطمة في الرواية الشكل المؤسف للعلاقات العاطفية الضعيفة وتقول أمها بعد موت أبيه «بَعْدَ الْآنَ، لَنْ أَجْعَلَ رَجُلًا يُوْذِيكَ، بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، أَمَّا الْيَوْمَ، فَيُمْكِنُنِي أَنْ أَقُولَ لَكَ إِنَّ مَوْتَهُ لَنْ يَفْسِدَ حَيَاتُنَا» (نفسه: ١٤). نشاهد عدم التضامن في أسرتها

جربت الانفكاك عن الأسرة والمجتمع في وقت معا وانتحرت.

٤- المعايير الخلقية في المجتمع العراقي

يشير كاتب الرواية إلى أنّ التعصّب لايزال يموج بين العراقيين، ويقصد به التعصّب بالزوجة والعائلة، وقد يؤدّي هذا التعصّب بنهاية الأمر إلى القتل:

«لَأَنْسِي جَمِيلَةَ الْبِنْتِ الَّتِي كَانَتْ مَعِي فِي الْمَدْرَسَةِ وَكُنْتُ أَعْرِفُهَا مِنْذُ الطُّفُولَةِ لِأَنَّ بَيْتَهُمْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْ بَيْتِنَا شَعَرَهَا الْأَسْوَدُ السَّبْطُ أَطْرَافَهَا النَحِيلَةُ شَحُوبٌ وَجْهَهَا الَّذِي يَزِيدُ مِنْ حِدَّةِ سَوَادِ شَرَائِطِهَا كُلُّ هَذَا جَعَلَنِي مُتَعَلِّقَهُ بِهَا قَتَلَهَا أَبُوهَا بِلا رَحْمَةٍ وَشَفَقَةٍ هَكَذَا ضَرَبَهَا بِصَخْرَةٍ عَلَيَّ رَأْسَهَا فَمَاتَ قَتَلَهَا لِأَنَّ ابْنَ جَارِهِمْ إِغْتَصَبَهَا فَفَعَلَ فَعَلْتُهُ مَعَهَا وَهَرَبَ عَادَتْ إِلَيَّ مَنْزِلَهَا مُرْتَاعَةً دُونَ أَنْ تَفْهَمَ مَا حَدَثَ لَهَا فَأَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيَّ عَارَهَا بِمَوْتِهَا» (البدر، ٢٠١٥: ١١).

في هذا المقطع، إن البدر يظهر لنا مقدّره علي وصف الجزئيات؛ نري أنّ الكاتب يقف عند الجزئيات التي يتكوّن منها الجوّ المسيطر علي المجتمع؛ فيصف الألوان

والحركات والأشكال ليجعل تصويراً واضحاً أمام المخاطب، ثم من خلاله يشير إلي الواقع المرير، وهو الموت علي إثر الغيرة الشديدة للرجال بالنساء.

هذا، وإن الزواج بالإكراه أو الزواج القسري هو أحد أشكال الزواج الذي يتم في المجتمع العراقي، على الرغم من رفض أحد أو كلا الطرفين؛ في الرواية، يشير البدر إلي الرجل العاشق الذي يجب أن يتزوج بأخري قهراً:

«مَظْلُومٌ وَاللَّهِ يَا نَاسَ مَظْلُومِ الرَّجُلِ الَّذِي عَشِقَ امْرَأَةً وَزَوَّجَتْ إِلَيْهِ غَيْرَهُ جُنَّ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْ حُبِّهَا وَعَنْ شُعُورِهِ بِالظُّلْمِ طَوَالَ حَيَاتِهِ وَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا يَهْتَمُّ بِهِ...» (المصدر نفسه، ١٠)

في الحقيقة، إن البدر رسم صورة سلبية معتمدة علي أن الزواج القسر كظاهرة ملحوظة في العراق.

ومن العيوب الخلقية الأخرى، نستطيع أن نشير إلي اللامساواة بين الجنسين الرجل والمرأة أي الاهتمام الزائد بالرجل واللامبالاة بالمرأة:

«كَانَتْ أُمِّي خَائِفَةً عَلَي الدَّوَامِ وَهِيَ مُرْتَعِدَةٌ مِنَ الْخَوْفِ أَمَامَ وَالِدِي لَا تَفَارِقُنِي حِينَ تَتَكَلَّمُ مَعَهُ كَأَن تَتَكَلَّمُ بِوَقَارٍ أَبْكُمْ كُلَّ شَيْءٍ يَتَحَرَّكُ فِيهَا شَفَتَاهَا وَخَدَاهَا وَيَدَاهَا الْخَوْفُ كَانَ سِمَتَهَا» (البدر، ٢٠١٥: ٨٤)

يستتبط من النص أن المجتمع العراقي ينظر للمرأة نظرة دونية بحيث أصبح جنسها شتيمة!

٥-الفقر والحرمان:

يعد الفقر أحد أبرز الظواهر السلبية المؤثرة في النظام الاجتماعي على مستوى المجتمع العراقي، بسبب ما تخلفه تلك الظاهرة من العوامل التي تعمل على إعاقة أو إجهاض ما يمكن أن يتيح للحياة الاجتماعية فرص الثبات والاستقرار والتجديد والابتكار؛ قد صرح الكاتب بالفقر والحرمان في مواضع مختلفة منها: «الفقر هو السبب هذا من دون شك أقول هذا وأنا مطمئنة شيء واضح لا يحتاج إلي أي إثبات..» (البدر، ٢٠١٥: ٤٨)

وكذلك نقراً:

«لَقَدْ تَغَيَّرَ أَبِي وَمَعَ أَنِّي أَرَاهُ عَمَلًا فِي قُوَّتِهِ وَ عُنْفِهِ وَ سُلْطَتِهِ لَمْ يَعْترِضْ عَلَيَّ أُمِّي وَ هِيَ تَرْعِي كُلَّ مَنْ تَرَاهُ بِحَنَانِهَا الَّذِي يُشَبِّهُ السَّيَاطِ اللَّاهِبَةَ وَلَكِنْ وَالِدِي عَلَيَّ بِرُودَتِهِ مَعَنَا قَبْلَ ظُهُورِ الْمُسْلِحِينَ كَانَ يُعْطِينَا شَيْئًا مِنْ قُوَّتِهِ دَمًا بَعْدَ ذَلِكَ شَعَرْتُ بِتَغْيِيرِهِ تَمَامًا أَصْبَحْتُ أَخْشَى مِنْ قُوَّتِهِ الَّتِي شَمَلَتْ بِذَعْرِهَا كُلَّ الْمُحِيطِينَ بِهِ» (المصدر نفسه، ٣٣)

في الواقع، إن الكاتب يقول مازالت ظاهرة الفقر والحرمان مسيطرتان علينا:

«كنا فقراء لم يكن في منزلنا سوي حصان هرم وبغله» (المصدر نفسه، ٣٦).

هذه الرواية حكاية عن الأنوثة الفاشلة، و تزيل لنا الستار عن ثقافة السلطة الابوية الوهنة، مصورة بناء العراق الاجتماعي، العنصرية، المشاكل الثقافية، الصراعات و الإرتباكات في المجتمع العراقي. هذه الرواية تصور كيفية حياة المجتمع العراقي وسلطة المتشددین عليها، وفقرها الإقتصادي، و الثقافي و الظلم و العنصرية بين الرجال و النساء و التحديات بين التراث و الحداثة، معبرة أيضا عن الطبقة السفلى للمجتمع، دون أن يطرأ عليها رؤية سطحية. و الجدير بالذكر أن أهم شيء تركّز عليه علي بدر في هذه الرواية، هو المهاجرة و الاغتراب و قضية الهوية التي هي في حد ذاتها قضايا حديثة.

٦- اغتراب الذات في المجتمع العراقي:

جاء في «لسان العرب» «اغترَبَ الرَّجُلُ: نَكَحَ فِي الْغُرَائِبِ وَتَزَوَّجَ إِلَى غَيْرِ أَقَارِبِهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: اغْتَرَبُوا لَا تَزْوُجُوا أَي لَا يَتَزَوَّجُ الرَّجُلُ الْقَرَابَةَ الْقَرِيبَةَ، فَيَجِيءُ وَلَدُهُ ضَاوِيًا أَوْ ضَعِيفًا دَقِيقَ الْعَظْمِ هَزِيلًا، وَالْاِغْتِرَابُ افْتِعَالٌ مِنَ الْغُرْبَةِ؛ أَرَادَ تَزَوَّجُوا إِلَى الْغُرَائِبِ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرِ الْأَقَارِبِ، فَإِنَّهُ أَنْجَبَ لِلْأَوْلَادِ...». (ابن منظور، مادة غرب)

الاجتراب «نوع من الاضطراب في علاقة الفرد بنفسه والعالم، حيث يشعر المرء بأنه غريب عن ذاته منفصل عن واقعه بسبب فقدان المعنى المتمثل بصورة أساسية في الهدف» (يوسف، ٢٠٠٥: ١٤ - ١٥) هناك للاغتراب وجوه عديدة؛ «فمنها الاغتراب عن الوطن إلى جهات بعيدة ونائية ومنها الاغتراب النفسي وذلك حين يشعر المرء بأنه يعيش غريباً بين أبناء مجتمعه ومنها أيضاً اغتراب المرء عن نفسه، وذلك حينما تنفصل عري الوثائق بين الإنسان ونفسه، وكذلك الاغتراب الذي يفارق فيه الإنسان أهله وأصدقاءه ويرحل إلى مجتمعات أخرى، تنعدم فيها صلات القربى ويتوجه إلى مجتمع آخر ويكون فيه أصدقاء جدد ليعوضوه عن أهله» (ياسين، ١٩٩٢: ٩) إن حالة الاغتراب هي «عندما

تشعر الذات بالانكسار بسبب الاستبداد الواقع عليها، إذ تعيش في عالم لا تسيطر عليه، وتشعر بالعجز عن تغييره، ولاتمارس حريتها وبالتالي تفقد وجودها» (البدر، ٢٠١٥: ٨٥) بغض النظر عما مضى، إن ظاهرة الاغتراب متجلية تماما في رواية الكافرة، و الشخصيات جميعا تتصف بالاغتراب، بنحو من الأنحاء. هذا الامر متجل في تصرفها، و تعاملها مع الأمور، ونوع العلاقة، و اتخاذ قراراتها، حيث كأنه هناك حوادث مشتركة بينها فكل شخصية مغتربة عن ذاتها مجتمعتها؛ هذا الامر لا يختص فقط بصوفيا و أسرته الساكنة في العراق، بل إن آدریان الذي أقام بلبنان و نشأ فيها و لجأ إلى بلجيكا، فهو يعاني من نفس القضية. إن اغتراب الذات، يبدو جليا في بعض الحوارات المتبادلة بين شخصيات الرواية، كما أنه يمكننا الحصول عليها من خلال مستويات الرواية الخفية، على سبيل المثال:

قُلْتُ لِنَفْسِي الْأَسْمَاءُ أَقْدَارٌ كَانَ قَدَرِي مَعَ إِسْمِي فَاطِمَةَ سَيِّئًا هَكَذَا عَلَيَّ أَنْ اسْتَبْدَلَهُ بِاسْمٍ آخَرَ عَلَيْهِ يَجِبُ الْحَظُّ لِي الْإِسْمُ الْبَلْجِيكِيُّ الْجَدِيدُ سَيَمْنَحُنِي حَيَاةً جَدِيدَةً سَيَنْكُرُ كُلَّ أَصْلِ السَّابِقِ لِي وَ يَنْفِيهِ سَيَجْعَلُ فِي إِمْرَأَةٍ مُحْتَرَمَةٍ سَيَرْغَمُ الْآخَرِينَ عَلَيَّ إِحْتِرَامِي (بدر، ٢٠١٥: ١٧٤).

نَعَمْ لَقَدْ تَجَاوَزْتُ مُحِنتِي وَ كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ سَبَبٍ مَأْسَاتِي فَأَدْرَكْتُ أَنَّ سَبَبَ مَأْسَاتِي هُوَ أَنِّي أَعِيشُ فِي هَذَا الْعَالَمِ كَلَاجِئَةٍ غَرِيبَةٍ وَ وَحِيدَةٍ أَيْضًا (نفسه، ١٧٣). نلاحظ في العبارة أعلاها أن صوفيا (فاطمة) تكشف بصراحة عن شعورها بالاغتراب و هي في بحث عن طريق للخلاص من الواقع الذي هو - حسب تعبير سيمن - إن فكرة الاغتراب، بمثابة زوال القدرة أو الضعف، والمتأثرة بالاتجاه الماركسي، فهي الأعم استخداما في هذا المجال. و إن هذا الشكل أو النوع من الاغتراب، لديه، يمكن فهمه هكذا: إن توقع أو احتمال الشخص، لا يقدر على تعيين مكتسبات أو قوات اعتيادية، حيث يبحث عنها في حاصل تصرفه بنفسه (كوزر و روزنبرگ، ١٣٨٧: ص ٤٠٩؛ زكي، ١٣٨٨: ٣٠).

« مَبَالْغَتَهَا فِي الْعَنَايَةِ بِشَعْرِي وَ اهْتِمَامُهَا بِنُوعِيَةِ حَذَائِي الَّتِي أُرْتَدِيهِ جَعَلَنِي غَرِيبَةً عَنْ كُلِّ مَا يُحِيطُ بِي شَعَرْتُ فِي ذَلِكَ الزَّمَنُ أَنَّ أُمِّي تُرِيدُنِي أَنْ أَكُونَ مُبْتَعَدَةً بِشَكْلِ عَيْنِدِ عَنْ كُلِّ مَا يُحِيطُ بِي أَنْ أَكُونَ غَرِيبَةً وَ مَبْذُودَةً مِثْلَ مَرِيضٍ » (بدر، ٢٠١٥: ٨٤).

لَمْ يَعدْ هنالك ما يربطني به شَعَرْتُ بأنني غريبة عَنْ كلِّ ما يحيط (بدر، ٢٠١٥: ١٤٢).
تشعر صوفيا بالاغتراب كشجر فقد جذوره، وشعورها، في إقامتها بأروبا،
بالاضطراب، و عدم الثقة الاجتماعية، والتوتر، والهرج والمرج، منعها من مشاركتها و
نشاطها الفعال في المجتمع، حاليا هي مهاجرة في بلجيكا، متصارعة مع جذور ذاتها. قد
دفعها فاصلها الهوياتي إلى الانحرافات، وإن انتحارها غير الناجح هو الخطوة الأولى من
تصرف صوفيا الشاذ، وهي باعتبارها مهاجرة عربية تواجه تعارضات ثقافية جديدة.
وحتى في أروبا شاهدت فاطمة هذا الإغتراب: كنت أسير في الشوارع والناس
تَنْظُرُنِي، باستغراب بِسَبَبِ أَسْمَائِي الواسعة بِسَبَبِ قصماني المُخْتَلِفَةِ الألوانِ أَلْبَسَهَا
الوَاحِدَةَ فَوْقَ الأُخْرَى أو مِنْ شَعْرِي المجدد الأَسْوَدِ وَجْهِي العَرَبِيَّ النحاسي
(نفسه: ١٥٩).

و أما أدريان يفقد قدرته على حل الأزمات الداخلية والتعرف على أسباب اغترابه
الذاتي: أَمَا شَقَّتْهُ فِي بروكسل؛ فَهِيَ تَعكس طَريقته الَّتِي إختارها للابتعاد عَنْ كلِّ ما
يذكره بحقيقته (بدر، ٢٠١٥: ١٣٢).

أدريان لقد نَجَحَ فِي أن يغدو شخصا آخر (بدر، ٢٠١٥: ١٣٢).

يسعى أدريان إلى كبت هويته الاجتماعية، دافعا نفسه إلى الإلتزام بالإضراب عن
لغته الأم، طقوسها وثقافتها، وكيفية ارتدائها وحتى ماضيها.
إن أدريان لا يعاني من فقدان المعنى فحسب، بل من الانزواء الاجتماعي، بصفة
شكل من أشكال الإغتراب، أيضا. فقلد تحول إلى شخص عديم الثقة ساعيا إلى إنشاء
حاجز حصين بينه وبين الآخرين، لئلا يطلع الآخر على ماضيه، أو يقوم بتعامل معه،
هذا وإن الامر يعود إلى خوفه واضطرابه.

من الموضوعات ذات الأهمية، دراسة مسألة أزمة الهوية في هذه الرواية التي
تهيمنت على شخصيات القصة. عليه، فإن الشخصيات تفر من ذواتها في هذه القصة،
باحثة عن موقف أفضل وهوية أخرى. الجدير بالذكر أن علي بدر استطاع أن يصور
بدقة حياة و حيرة جيل الشبان في بوتقة الحرب والصخب والضوضاء. إن فاطمة لا
تزال غير راضية عن وضعها الموجود، فهي تنمو في أسرة صغيرة و عالم مغلق و محدود،
إلى أن تتعرف على أدريان المنطوي على ذاته، و الذي جرحته مصيبة الحرب والشغب.

تتجلى في القصة بوضوح، معضلات فاطمة، منها التوتر، والقنوط من الحياة، كما أنها تم وصفها من قبل فاطمة نفسها. لما تعرفت فاطمة على أدريان، تجد طريق نجاتها في وجوده و حبه، ساعية إلى إيجاد علاقة معه، فهي بعدما فقدت تعلقاتها كالزوج و الأم و . . . تتعلق في بلاد أجنبية بأدريان، مؤمنة بأنه لتنجو بها من التعاسة، وهي تغفل عن أن أدريان نفسه جريح ماض قضى على ابيه، فهو أيضا مشغول بنفس المشكلة (حرب اللبنا و الوطنية التي كانت قد دفعت أسرته لها ثمنا باهظا).

٧- العنف ضد المرأة:

عرّف العنف لغويًا بأنه الخرق بالأمر وقلة الرفق به، وهو ضد الرفق وأعنف الشيء أي أخذه بشدة والتعنيف هو التقريع واللوم (ابن منظور، مادة عنف) وأمّا التعريف الإصطلاحي للعنف: يعرف البعض العنف بأنه «الإكراه المادي الواقع علي شخص لإجباره علي سلوك أو التزام ما» (مجدي حجازي، ١٩٩٥: ١٥)

إن العنف ضد النساء والفتيات هو أحد أكثر انتهاكات حقوق الإنسان انتشارا واستمرارا وتدميرا في العالم العربي؛ تؤثر العواقب السلبية المترتبة عن العنف ضد المرأة والفتاة على صحة النساء النفسية والجنسية والإنجابية في جميع مراحل حياتهن، ويميز المجتمع العراقي كثيرا بين المرأة والرجل، ويسجل في تقاليده انحيازاً وضاحاً إلى جانب الذكر على حسب الأثني؛ «الوضع الإنساني للمرأة في العراق ومدى الالتزام بتطبيق اتفاقية مكافحة كافة اشكال التمييز ضد المرأة المفوضية العليا لحقوق النسا و جمهورية العراق» (البدر، ٢٠١٥: ٥)

فنشاهد في مواضع عديدة من الرواية أن الكاتب يشير إلي العنف الذي يمنع المرأة من الحصول علي استقلاليتها:

«نَحْنُ لَيْسَ لَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ غَيْرَ الْمَوْتِ لَا مَلَقَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ غَيْرَ الْقَسْوَةِ والعنف» (المصدر نفسه، ١٩)

حيث تقول: ليس في هذا العالم مكان آمن للمرأة، في الحقيقة، إنها فقدت سكينتها النفسية و هويتها الحقيقية.

في موضع آخر، يأتي بلفظ العنف مرتين، ويؤكد علي وجوده في المجتمع العراقي:

« مَاذَا تَعْرِفُ عَنِ الْعُنْفِ الَّذِي شَهِدْتُهُ صَحِيحٌ أَنَّ الْعُنْفَ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَالْجَرِيمَةُ لَيْسَ حَكْرًا عَلَيَّ أَحَدٌ وَلَكِنَّ الْجَرَائِمَ مُخْتَلِفَةٌ » (المصدر نفسه، ٧).

ومن الجدير هنا، أن نشير أن التعصب الديني وبعض الأعراف الاجتماعية قد
يؤديان إلى العنف واستخدام التعسف والقوة ضد الآخرين؛ فنرى أن الاتجاهات الدينية
والتعصبية ضد المرأة من أهم أشكال العنف المنتشرة حالياً في العراق

نستطيع القول بأن الواقع المرير الذي خلفه الاحتلال، عدم استقرار العائلة والخوف
من العنف علي وضع المرأة؛ في اللوحة التالية من الرواية، يحاول الكاتب فيها أن يصف
وضع المرأة والأوضاع الوخيمة المسيطرة عليها في المجتمع العراقي:

« إِنزَلِي يَدَيْكَ عَنِ وَجْهِكَ أَنْزَلْتُ يَدَهَا بِيْطَاءَ عَنْ وَجْهِهَا فَجَاجَأَهَا بِضَرْبَةٍ لَا تَلِينُ عَلَيَّ
الْأَسْنَانُ صَرَخَتْ أَهْ بِالْأَلَمِ حَادٍ قَادِمٍ مِنْ أَعْمَاقٍ وَبَصَرَخَهُ مَكْتُومَةً بَيْنَمَا إِنْفَجَرَ الدَّمُ مِنْ
فَمِهَا وَسَارَ عَلَيَّ حَنَكُهَا عَلَيَّ الْوَسَادَةُ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تُطْلِقَ صَرَخَتَهَا لَقَدْ كَتَمْتُهَا
» (البدر، ٢٠١٥: ١٢)

في موضوع آخر، يقول الكاتب:

« لَكِنَّ إِنْشَغَالِي مِنْذُ وَصَلَ الْمُسْلِحِينَ بِالْعَمَلِ فِي الْمَنْزِلِ الْكَبِيرِ مَعَ أُمِّي وَلُوجِي فِي
هَذِهِ الْقِصَصِ الْحَزِينَةِ لِهَاتِهِ النِّسَاءِ الْبَائِسَاتِ وَإِسْتِمَاعِي إِلَيَّ صَوْتِ بُكَائِهِنَّ وَالْوُلُوجُ فِي
تَفَاصِيلِ عَدِيدَةٍ بَائِسَةٍ رَاحَ يُظْهِرُ الْجَفَافُ فِي رُوحِي الطَّارِجَةَ وَ يُؤَثِّرُ فِي مُتَعَتِي فِي
الْحَيَاةِ » (المصدر نفسه، ٩١)

ومن بين الأشكال الأخرى للعنف رواية الأب الذي يقتل ابنته من أجل وصمة
العار: قتلها أبوها بلا رحمة وشفقة، هكذا ضربها بصخرة علي رأسها فمات، قتلها لأن
ابن جارهم إغتصبها (همان ، ٢٠١٥ ، ١١).

٧. النتيجة:

وأخيراً يمكن أن نستخلص أهم النتائج والأفكار التي توصلت إليها هذه الدراسة

علي الشكل التالي:

_ إن الكاتب العراقي، يغلب في روايته الاتجاه الواقعي؛ وفي قراءة نقدية لرواية
الكافرة، نجد أنها تعتبر الصورة الموضوعية الكاملة للمجتمع العراقي، ويرسم الراوي

فيها الأسيرة العراقية والمجتمع العراقي وبكل ما تعرض له العراق من ويلات الحرب و مفاسدها.

_ أكثر الملامح الواقعية التي استخدمها الكاتب هي تصوير الظلم والحرمان في المجتمع العراقي؛ إن علي بدر يشعر بهموم الناس وآلامهم ويحس نبضات قلوبهم وما يدور من أفكار في عقولهم.

- إن أزمة المرأة وتختلف نظرة المجتمع لها هي أزمة طاحنة شاملة يعاني العراقيون منها؛ إن البدر رسم صورة سلبية معتمدة علي أن الزواج القسر كظاهرة ملحوظة في العراق؛ بهذه الصور، ينتقد الكاتب تلويحاً من بعض العادات الاجتماعية السلبية والمحجفة في العراق.

-إن الكاتب يلقي إلي المخاطب تلويحاً بأن الابتعاد عن الوطن العربي والهجرة إلي البلد البلجيكي، ينتهي إلي اغتراب الذات؛ وبالنسبة إلي العراقيين، سيطر المتشددون الاسلاميون عليهم وأجبروهم إلي ترك الوطن، ما ينتهي إلي هذا النوع من الاغتراب و أهم مؤشرات أزمة الهوية ك فقدان الذات مقابل الهوية الغربية، انشقاق الهوية و انهيارها، تبدو واضحة في رواية الكافرة. و من أهم مؤشرات أزمة الهوية لشخصيات الرواية هو الشعور بالضيق، واغتراب الذات، و النزوع التام إلى الهوية الغربية، و القنوط من الهوية الوطنية، وهي- أزمة الشخصيات-هي، في الأغلب، ناتجة عن التداعيات الثقافية و الاقتصادية و الجهل و التخلف و الفقر و تجدد الإشارة أيضاً، إلى أن الكاتب تنوي من خلال انتقاده للاسلام السلفي؛ على ارتداء الحجاب قسراً، و التنقب جبراً، و استعباد نساء النصرانيات من ثم الاعتداء الجنسي عليهن. يعتقد أيضاً إن ظروف المجتمع المتوترة فهي قد ساهمت في وصول صوفيا إلى مصيرها هذا، مؤكداً من خلاله على المجال الاجتماعي و التفكير الأخلاقي. لقد عكف الراوي على كشف تداعيات العراق و اللبnaan الحربية رابطاً بعضها ببعض، مردفاً إلى أن الحرب كيف نشبت نيرانها في أناس أبرياء بعد سنين، اعتقاداً له بأن ظهور داعش هو من أسباب المكافحة الأمريكية ضد العراق، ذاهباً إلى أن مصير أهالي العراق تأثر من تداعيات الحرب و الإرهاب، حيث لم يتركهم حين هجرتهم و حضورهم في أوروبا. كما أنه يعتبر الانتحار، و الأرملة، العمليات الانتحارية، والانزواء، واغتراب الذات، و الهجرة،

والتهاون، والعلاقات العاطفية، كلها من تداعيات الحرب، من جهة قد استطاع بمهارة أن يصور، تداعيات الحرب بما فيها من الاعتداء الجنسي على المرأة الايزدية، و النصرانيات، وشنق المخالفين، واستعباد المرأة العراقية و إدخال العراقيين و مشاركتهم في العمليات الارهابية، و انتحار النساء؛ ارتدائهن الحجاب، أو النقاب أو ثوب الحداد، وتسويط الرجال، وانهيار العلاقات العاطفية، و الانزجار العقدي، تصويرا يكتنفه نقد لاذع. و بطل قصته يفضل، في النهاية، البقاء على القيم، والذات على الجماعة، النفعية على الايديالية، والوفاء، مواجهها بعدئذ بفقدان لشعور انساني مشترك.

قائمة المصادر والمراجع

- ١- ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٩٨م). لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
١. البدر، علي (٢٠١٥م). الكافرة. بغداد: منشورات المتوسّط.
٢. راغب، نبيل (٢٠٠٣م). موسوعة النظريات الأدبية. لوندان: الشركة المصرية للنشر.
٣. مجدي حجازي، احمد (١٩٩٥م). شادية علي قناوي. المخدرات وواقع العالم الثالث. دراسة حالة لأحد المجتمعات العربية، مجلة القاهرة للخدمة الإجتماعية، ج١، عدد١، القاهرة.
٤. نشاوي، نسيب (١٩٨٠م). مدخل إلي دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر. دمشق: الجمهورية العربية السورية.
٥. وادي، طه (١٩٩٢م). دراسات في نقد الرواية. القاهرة: دارالمعارف.
- هدارة، محمد مصطفى (١٩٩٤م). بحوث في الأدب العربي الحديث. بيروت: دار النهضة العربية.
٦. يوسف، محمد (٢٠٠٥م). الاغتراب الإبداعي لدي الفئات الإكلينيكية. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.
٧. ياسين، طالب (١٩٩٢م). الاغتراب؛ تحليل اجتماعي ونفسي لأحوال المغتربين. عمان: المكتبة الوطنية.
٨. محمد الربيعي، رنا فرمان، (٢٠١٤م)، الوثيقة والتخيّل التاريخي في روايات علي بدر، إشراف ناهضة ستار عبيد، جامعه القادسية، بغداد، مرحلة ماجستير.

دراسة ملامح الواقعية في رواية "الكافرة" للكاتب العراقي "علي بدر"..... (32)

٩. كوزر، ليوئي س، (١٣٨٣)، حياة ومفهوم حكماء علم الاجتماع ، مترجم: محسن
ثلاثي، الطبعة الحادية عشرة ، طهران، منشورات علمي.